مع غزّة

معركة الحياة ضدّ كلّ صور الموت

جمال حيدر

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في ايام العدوان على غزّة وكيف اثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء. «لا شيء يشغلني سوى غزّة»، يقول الكاتب والمترجم العراقي لـ «العربي الجديد»

جمال حيدر

لندن - **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟

لا شيءَ يشغلني سوى غزّة. أجل تشغلني، أتابعها بصبرٍ عجيب لم أعهده من قبل. هي تعني لي طفلة تبكي هلعاً بعدما فقدت أهلها، تبكي الوحدة والفقد والألم تختلطُ دموعها الساخنة ببقايا التّراب المنثور على وجهها وشعرها. غزّة تعني لي طفلاً دون العاشرة من عمره بُترت قدماه، ويتمنّى أن تنبتا مرّة أخرى مثل شجرة. تعني لي أيضاً المقاوم الأنيق الذي شاعت صوره مؤخراً، يذهب للقتال كمن يذهب إلى حفل زفافه.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

غزّة والعدوان عليها حاضران معي بشكل يومي. أقول لم تكن غزّة لوحدها، كنّا معها ونحن هنا على بعد الاف الأميال، نسمع دوي القنابل في أزقتها وحاراتها، وأصوات الطائرات المُغيرة في سمائها، نسمع مليّاً صوت الرصاص وهو يخترق الهواء، غير أنّنا نسمع في الوقت ذاته كلمة (لا) بوضوح، يطلقها المحاصرون والجياع والأطفال الذين فقدوا عائلاتهم. (لا) غير قابلة للشك أو التأويل، يطلقونها بصمود أسطوريٍّ بوجه المُحتل. اسم غزّة لا يزال مزعجاً في بقاع وزوايا عدّة من هذا العالم، وتجاهلها مقصود وُمتعمّد بسبب ما أحدثته من إزعاج وقلق. وهنا تكمن البطولة.

■ إلى أي درجة تشعر أن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

لابدّ من صحوة للضمائر، وهذا ما على الكاتب أن يفعله بجهد ومثابرة، وإلّا ما نفع الثّقافة، ما جدواها؟ ما نفع اللغة إن لم تشيّد هرمها المعرفي لصالح الإنسان وضد اضطهاده وقمعه ومصادرة أرضه وحريته! على المثقّف أن يكون على الدوام مُعكّرًا لصفو الظالمة. الثقافة هي مبدأ وموقف وليست مهنة، والإبداع هو خط الدفاع الأخير ضد التوحش البشريّ الذي بلغ مداه في عدوان غزّة، في تدمير بُنيتها التحتيّة في محاولة يائسة لكسر مقاومة الإنسان وتهميش روحه. ومع هذا السياق المشحون، يُثير دور المثقف الكثير من الجدل، فهو مطالب بالمزيد من المواقف الواضحة والمبدئيّة في مواجهة الظُلم والاستبداد، وترسيخ وعيه وبصيرته حول مفهوم الوفاء والمسؤوليّة.

على الصعيد الشخصي، فلسطين بالنسبة لي هي البوصلة التي تشير دوماً صوب الحقيقة.

■ لو قيّض لك البدء، من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أم مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

حين مارست الكتابة لأوّل مرّة في أعوام مراهقتي، شعرتُ بأنّني ساحر، إذ يمكنني تحويلُ الأوراق البيضاء الفارغة إلى ساحة معركة بين الكلمات. سأبقى ذلك الساحر الذي يستخدم الكتابة كأداة لتنظيف أماكن معيّنة في قلبه، أماكن عميقة لا يمكن الوصول إليها بغير الكتابة. حتى لو بدأت حياتي من جديد، سأختار ذات المسار، وأرتكب الأخطاء ذاتها. فأنا راضٍ كلّ الرضا عما عشته في حياتي برغم العثرات. إذاً، لا شيءَ بإمكانه أن يمثّلني ويتماثل معي سوى الكتابة.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

كلّ ما جرى وما شهدنا يجعلنا نتطلّع بعين الرّضا إلى ما حقّقته المقاومة، وإدراكاً للحقيقة أنّ وحدة الساحات وربط نضالات الشعوب أصابت العدوّ وأذياله ومناصريه بالوهن والخيبة والخسران. العالم لن يتغيّر، ولن تتغيّر ازدواجية معاييره. سيبقى غارقاً في وحشيّته وبشاعته واحتكاراته. نحنُ الذين علينا أن نتغيّر، أن نعي جيداً وأن ننظر بعينٍ رائيةٍ مُتخمةٍ بالأمل والنّصر. فبعدَ كل هذه المساحة الزمنيّة الطويلة في القتل، لا تزال غزّة أكثر الجدران صلابة، والغزّاة المحتلون لا يفلحون بأكثر من إحداث ثقوب ينظرون منها، علّهم يجدون أثراً صغيراً لوهمهم الكبير. لا لن يمروا.

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

أود لو كان جيفارا حاضراً معنا. غسان كنفاني وإدوارد سعيد وجان جينيه أيضاً.

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟

نتعلمُ كلّ يوم منكم أعلى درجات الأمل والرغبة في الحياة. هذا درس حياةٍ عظيم لنا، نتعلّمُ منه أنّ «إسرائيل» ليست وجهة نظر، إنّها المتغطرسة والقاتلة والمُحتلة، والتّعامل معها بأيّة صورة، يندرج في خانة التآمر والعمالة والخيانة والنذالة. إذاً لا بدّ للإنسانيّة أن تفوز، لا بدّ للعدالة أن تنتصر. أقول: قُم أيّها الغزّي وانفض عنك غبار الصدامات التي ستضع لا محالة عن قريب فصلها الأخير. فلنتصدق من قال إنّها أوهن من بيتِ العنكبوت.

> «إسرائيل» ليست وجهة نظر، إنّها القاتلة والمُحتلة
>
> يجب على المثقّف أن يعكر دائماً صفو القوى الظالمة

بطاقة

كاتب ومترجم عراقي مقيم في لندن. تنوّعت كتبه بين النقد والأدب والرواية والترجمة، من بينها: «بغداد - ملامح مدينة في ذاكرة الستينات» (2002)، «الغجر ذاكرة الانسان وسيرة العذاب» (2008)، «الهيبز - الجنس، الموسيقى، والمعرفة المضادة» (2017)، «جنحة في سماء بعيدة» (2021). من ابرز اعماله في الترجمة اربعة مجلدات من اعمال الشاعر اليوناني يانيس ريتسوس (ترجم ثلاثة منها بالتعاون مع عبد الكريم كاصد).

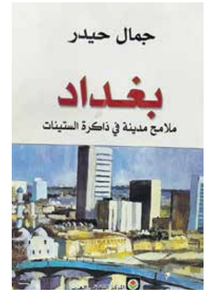

إطلالة

في تبرير حدود الشر المطلق

زيف التاريخ والوعد الباطل

يدلُّ تزييف التاريخ على قوة تأثيره، إذ يبلغ حدود تبرير الشر المطلق، تماماً كما يبرر الغرب مذابح الإبادة الجماعية التي ترتكبها «إسرائيل» في غزّة

فوّاز حداد

بالرغم من الحرب الدائرة في غزّة حالياً، والحروب التي سبقت، وعدم التراجع عن المقاومة بين جيل وآخر، رغم ما تكبّده الفلسطينيون من شهداء وضحايا ودمار، سيبدو من المستغرب أننا ما زلنا نجد عسراً واستعصاء في فهم المبرّرات الحقيقية، بعيداً عن التضليل والأكاذيب، في ما يدفع الإسرائيليون إلى الاعتقاد أن لهم حقاً بأرضهم، ومساندة حكومات الغرب لهم، وكأنّ هناك حقائق نحن غافلون عنها، أو أننا نتجاهلها.

يفضّل الإسرائيليون لإثبات حقّهم في فلسطين، العودة إلى التاريخ القديم، وإشهار دليل يدّعون ألّا أحد يُنازعهم عليه، دليل ديني، يُنظر إليه على أنّه إلهيّ، مع أنّ غالبية الذين أشهروا هذه الحجّة علمانيون وملحدون. مع هذا تؤخذ هذه البيّنة على محمل الجد، بزعم أنّ الله أعطى «أرض إسرائيل» في الأصل لبني إسرائيل، وبما أنّهم الأحفاد لأجيال ممتدّة على مدى ثلاثة الاف سنة في التاريخ، يطالبون بأرض رصدت لهم في التوراة. لكن الكثيرين من اليهود يخالفون هذا التفسير، فالأدلة واهية، لكن لا بد من التمسك بها على أنها مسألة إيمان، أي مسألة لا تناقش.

هذا التاريخ المُفبرك، لا يصمد أبداً في إنشاء حقّ، وهو التاريخ نفسه الذي ما زالت ثلاثة أجيال من تلاميذ المدارس الصهيونية يتعلمونه بالتلقين، ويصدّقونه، ما جعل من الفلسطينيّين معتدين على «أرض إسرائيل» التاريخية، وفي أحسن الأحوال شاغلين مؤقتين للأرض، سيأخذ ترحيلهم بالحسنى أو بالقوّة بعض الوقت، ولا سيّما أنهم عرب، في الصحارى الشاسعة متّسع لهم.

أمّا المستند السياسي فناجمٌ عن العقلية الاستعمارية، التي لا تجد في الاحتلال والتوطين مشكلة، وما دام أنّ النظر الاستعماري في صلب السياسة البريطانية، ونجم عنها حربان عالميّتان، كانتا في أحد وجوههما حول المستعمرات، رغم هذا لم يحظ الادعاء الديني الصهيوني الهزيل بأي ثقل، إلّا من حيث إدراج «وعد بلفور» في خطة تمّ إعدادها لحلّ مشكلة أوروبية، هي انتشار معاداة السامية التي لا يُمكن التخلّص منها إلّا بالتخلّص من يهود أوروبا. ما اضطر بريطانيا، ثم أميركا إلى الدفاع عن وجود كيان زُرع بالقوّة بعد الحرب العالمية الأولى، في بلد كان الفلسطينيون السكان الأصليين منذ نحو الفي عام من التاريخ.

اليوم، لا يمكن إغفال شبه الإجماع في الرأي العام الإسرائيلي على «عدالة» حربهم في غزّة، ولا إغفال، أيضاً، أنّ الحكومات الأميركية والأوروبية في مجلس الأمن، اعتبرت أعمال المقاومة الفلسطينية معاداة للسامية، وكلّ مقاومة يقوم بها الفلسطينيون «إرهاباً». ما شجع إسرائيل على اتخاذ قرار بشن حرب بربرية، لم تتراجع عنها، حتى بعد قرار «محكمة العدل الدولية»، بأنّه يمكن النظر إلى ما يدور في غزّة على أنّه يشكّل إبادة جماعية. وما زالت تحاول، لكنّها مخاطرة، إذ لا يمكن تجنّبها تحت أنظار صحوة جزء لا يُستهان به من العالم، لكنّها لا توفّر جهداً في تدمير حياة الفلسطينيّين، وجعل مدنهم غير صالحة للحياة، ودفعهم إلى الرحيل؛ في حرب إبادة جماعية فعلية تُنفّذ بالتدريج.

على مدى 75 عاماً قاوم الفلسطينيون الكيان الصهيوني الاستعماري التوسعي. ولم يتحقّق السلام أبداً. لم تكن «إسرائيل» تسعى إليه، كانت تسعى إلى انتزاع المزيد من الأراضي الفلسطينية، وسواء كانت رغبة المقاومة محو «إسرائيل» من الخريطة أم لا، فقد كان الرأي هو أنّها لا تملك القدرة العسكرية. كل ما في وسعها فعله، شنّ حرب منخفضة المردود ضدّ «إسرائيل» التي لا تعدم القدرة على محو الفلسطينيين. لذلك كانت المفاجأة في طوفان الأقصى، ليس في أنّها أثبتت القدرة على ردم الهوّة مع القدرات العسكرية الهائلة لـ«إسرائيل» فقط، وانما في أنّ المقاومة لا يمكن القضاء عليها، وتستطيع اختلاق أساليب لاستمراريتها إلى نهاية، تعيد ما استلب من فلسطين.

بدأنا تزييف التاريخ على قوة تأثيره، إذ يبلغ حدود تبرير الشر المطلق. ففي استخدام قصة الحمالين وغيرها، تبرير للمذابح الوحشية في مجازر غزّة، باستثمار ماض يهوديّ خرافي. فاعتبرت أمة بكاملها هي المسؤولة، ولم يُستثنَ الأطفال، باعتبارهم مشاريع إرهابيين، ولا النساء الوّلادات تهديداً بزيادة النسل. هل تزييف التاريخ هو الذي دفع الدول الغربية إلى اعتبار المقاومة الفلسطينية إرهاباً؟

لا تخفى الحقائق على الغرب، ما دام أنّه يصنع الأكاذيب، ويغضّ النّظر عن التزييف، ما سمح له بتجاهل جرائم، تبدأ بعقود من القمع الاستيطاني، والطرد من البلاد، ومصادرة الأراضي، والتوغّلات العسكرية، وعنف المستوطنين، والفصل العنصري، والاعتقالات الجماعية، ولن تنتهي بترحيل سكان غزّة.

إلى الآن، يعجز الإسرائيليون عن الاعتراف بأنّ حدث السابع من تشرين الأول/أكتوبر، لم يكن بدافع معاداة السامية، وإن شاركهم معظم الدول الغربية. لم يُرد كلاهما فهم أنّ الرد الفلسطيني كان فعل مقاومة وحركة تحرّر وطني، وهي حق لكل شعب. لا تظهر الحقائق من عدم، إنها موجودة، هناك من يحملونها، ولا يتخلّون عنها، ولن يصمد تزييف التاريخ، ولا الوعود الباطلة، أمام الحقائق الدامغة.

(روائي من سورية)

> لا تخفى الحقائق على الغرب، ما دام أنّه يصنع الأكاذيب

طفل فلسطيني داخل سيارة دمرت بقصف الاحتلال، مخيم رفح للاجئين، 21 آذار/ مارس 2024 (Getty)

قصائد

تهزُّ بجذع النخلة وإن تساقط عليها الرطب جمراً وحشيّاً

الرسولة بحزنها الطويل من النهر إلى البحر

فوزية أبو خالد

هبة واهبة الحياة

«إلى الشاعرة هبة أبو ندى
في حياتها الخاطفة
وموتنا البطيء»

هبة
أيّتها الهبة
أيّتها البهبة
أيّتها الوهّابة
هبي لنا من بهائك ماء
فلم يعد في وجوهنا قطرة ماء
هبي لنا من تبهك كرامة
فقد أكل الاحتلال وجوهنا
هبي لنا من استشهادك حياةً
فقد ماتت قلوبنا
ومُتنا حياءً
هبة
أيّتها الولهى
هبي لنا من شعلة الشّعر
إلهاماً
لنحيا في معلّقة
غزّة من جديد.

■■■

هذه غزّة

تهزُّ بجذع النخلة
وإن تساقط عليها الرطب
جمراً وحشيّاً
هذه غزّة
ماء الأمومة
أمّ الأنبياء
فوقها جحيم القنابل
مفتوح على مصراعيه
وتحتها ثريا
من أشلاء بريئة
وأرواح طريّة
هذه غزّة
جمل المحامل
طود جبال
سفينة نوح
لا تريد بطولات
لا تروم مجداً
بمنتهى البساطة
تمدُّ يدها المطمورة تحت ركام بيتها
وتنقذ البشرية
من وحوشٍ بشرية
هذه غزّة
وحدها في المخاض
لا تهاب تُهماً
تتجرأ على ضراوة الحصار
بالصوم عن الكلام
بالصوم عن الماء
بالصوم عن الطعام
هذه غزّة
تغيظ المتكالبين على إبادتها
باستعصائها على الفناء
تعجّل موت البرابرة
بحياتها في الموات
وحدها غزّة تخيط بمغزل عزلتها
كفن المحتل
وحدها غزّة في وحشة وحدتها
يهابها العدو
وهي بضعفها
تهين جيشه القوي
يخجل منها الخجل
تستحي منها الإنسانية
وهي بيد واحدة
تهزّ النخلة
تزهو
بجرحها
وحزنها
وشهدائها
وترفع رأسها لما فوق
السموات القريبة.

■■■

غزّة

«الرسولة بحزنها الطويل من النهر للبحر»

وقُتِلت كلمة سلام
بأي ذنب قتلت
واغتيلتْ مفردةُ العدل
بأي يدٍ اغتيلت
انتشى وحش الاحتلال
بدم الأطفال
فمن أباح له ينابيع الحياة
ليَبلغ فيها

*

انقصم ظهر المكارم
جذت أجنحة الحرية
ذهبت الأحلام
أدراج الرياح

*

عميت الأبصار
عمَّ الصمم
فرغ الكلام
من الكلامِ

*

فار التّنور
فار
وفاحت
رائحة الأفران النازية
لم يبقَ من حيٍّ عليها
إلّا سفينة نوح
على أرض غزّة

*

وحدكِ يا غزّة
المُنقذة
وإن كنتِ الضحية
فأنتِ الرسولة بحزنها الطويل
الممتدّ من النهر
إلى البحر
أنتِ الزّرقاء
وأنتِ تحرّك الشجر والحجر
والرياح العاتية

*

أنتِ يا غزّة أوّل الحب
أنتِ يا غزّة آخر الأرض
أنتِ يا غزّة غزّة
أنتِ التّيه
وأنتِ النّبيّة.

(شاعرة وكاتبة من السعودية)

أطفال يطيرون طائرة ورقية بالقرب من الحدود مع مصر، رفح جنوب قطاع غزة، 28 آذار/ مارس 2024 (Getty)

فعاليات

عند التاسعة من مساء غدٍ الاربعاء، يُنظّم فرع «المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات» في تونس ندوة لتقديم كتاب بعنوان **في الصورة الفوتوغرافية: حكّام ومحكومون**، للباحث **الهادي خليل**، ويُحاوره فيها **عبد الجليل بوقرّة**. يتناول العمل أثر السلطة في التصوير الفوتوغرافي، وامتداد ذلك على البنى الاجتماعية.

الحرب على غزّة: ابعاد الامن الإنساني عنوان ندوة يعقدها «المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات» بالدوحة، عند منتصف نهار اليوم الثلاثاء، يُشارك فيها **كلٌّ من الباحثين: لاورنت لامبرت، وعبد الكريم قزيز وياسر شلبي، وتُقدّمها آيات حمدان**. وتُبثّ عبر حسابات المركز على مواقع التواصل الاجتماعي. يتناول المشاركون مفهوم الامن الإنساني في ظلّ العدوان الإبادي.

ضمن مشاريعها للرشفة المسرح في لبنان، تقدّم «مؤسسة فنون المسرح العربي: فضاء» بالتعاون مع «دار النمر للفنّ والثقافة»، عند التاسعة من مساء بعد غدٍ الخميس، امسية سردية بعنوان **منمنمات فلسطينية** لسرد تجارب مسرحيّين فلسطينيّين عملوا بالمسرح في لبنان منذ اواسط القرن الماضي حتى اليوم.

يقدّم «مسرح الرينبو» في عمّان عند السادسة من مساء الاربعاء، 24 نيسان/ ابريل الجاري، نقاشاً حول رواية **قناع بلون السماء** للاسير الفلسطيني في سجون الاحتلال الاسرائيلي **باسم خندقجي** (1983). يُشارك في النقاش الروائية **شهلا العجيلي** و**يوسف خندقجي** شقيق الكاتب، وتُحاورهما **امواج ابو حمدة**.